

مجلة تُعنى بتاريخ العرب
وآدابهم وتراثهم الفكري



ج٩ و١٠ س٥٦
الربيعان ١٤٤٢ هـ
تشرين الثاني-كانون الأول/نوفمبر-ديسمبر ٢٠٢٠م

تصدر عن: دار اليمامة للبحث والنشر والتوزيع ـ الرياض ـ المملكة العربية السعودية

في هذا العـــــــــــــدد

arab@hamadaljasser.com

الهند في كتاب
"تحقيق ما للهند .." للبيروني

د.مصطفى عطية جمعة

تقديم:

ينهض كتاب «تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذول» للعالم المسلم الكبير أبي الريحان البيروني كنموذج دال على أدب الرحلة في بعده التوثيقي العلمي، فالمؤلِّف عالمٌ له مكانته الكبرى في التراث العلمي العربي الإسلامي، بمؤلفاته العلمية الفذّة، في علوم نظريّة وعمليّة وتطبيقيّة؛ ظلّت مرجعًا لقرون عديدة لكلٍّ من أرادَ الإبحار والتعلم، ولا تزال تُشَكِّل علاماتٍ مضيئة في تراثنا الإسلامي العلميّ والفلسفيّ.

وقد جاء كتابه المذكور متجاوزًا أدب الرحلة في مفهومه الدارج، الذي يقوم فيه الرحّالة بتسجيل الطرائف والعجائب التي تخلب الألباب، وتشوّق القرّاء، ليجعل كتابه مثارًا للمسامرة والتفكّه، وتحقّق له الشهرة والقربى والحظوة. أما البيروني فقد أراد تقديم صورة صحيحة عن الهند، ينأى عمّا هو ذائع عنها في المخيّلة العربيّة من جهالات وأساطير وحكايات، وهي غاية حميدة، تضافرت مع رغبته في إيجاد مرجع علميٍّ شامل عن الهند في عقائدها وعلومها وجغرافيّتها،



تُعِـين كلَّ من أراد فهم المجتمع الهنديّ، ومعرفة خباياه، خاصــة دعاةَ الإســلام، وهم ينطلقون لنشــره في بلاد لها تاريخها وحضارتها وثقافتها وآدابها الراسخةَ، والضاربة بجذورها تاريخيًّا.

في ضـوء مـا تقدّم، تأتي هذه الدراسـة، من أجل قراءة هـذا الكتاب برؤية تحليليّة، تسـعى إلى فهم خطابه، ومعرفة السـياقات الثقافيّة والزمنيّة والمكانيّة التي أنتجته، وعلاقته بشخصيّة البيرونيّ، العالم والباحث والمترجم والمحقِّق.

لـذا، فقد جاءت الدراسـة في محاور، متدرجة من العـام إلى الخاص، ومن الفكـرة إلى المثل، حيث جرى التعريف بشخصـيّة البـيروني وتكوينه العلميّ، ثم الظـروف التاريخيّة التي جعلته يرتحـل إلى الهند مرات عديـدة، ودوافع تأليفه للكتاب، ومن ثَمَّ اسـتعراض بنية الكتاب، على مستوى المتن والأبواب والطروحات العلميّـة والفكريّة والدينيّة فيه. أيضـا، فقد توقّـف الباحث عند الخطاب المقدّم في الكتـاب بـدءًا من خطبة البـيروني في المقدمة، ثم تحليل النصِّ على مسـتوى المخاطَب، والسـرديّات والاقتباسات والاستشـهادات، وطريقة البيروني في إيراد المعلومات، وربطها، وتعميقها، وأيضا تبسيطها بالشرح والتحليل.

آمل من الله أن تكون هذه الدراسة سببًا في إيجاد تراكم معرفيٍّ حول كتابات البيروني الرحّالة والأديب خاصّـة، وفي تراثنا عن أدب الرحلة ذي الطابع العلميّ عامة.

البيروني العالِم والرحّالة والتاريخ:

لا يمكن النظر إلى شخصية أَبِي الرَّيْحَانِ مُحَمَّدِ بْنِ أَحْمَدَ البِيرُونِيّ (٣٦٢هـ / ٩٧٣م—٤٤٠هـ/ ١٠٤٨م)[1] على أنه رحّالة فحسـب، ولا سبيل لقراءة رحلته إلـى الهند بمعـزل عن تكوينـه العلمي، فهو عـالمٌ فذٌّ عبقـريٌّ، متعـدّدُ المواهبِ والقـدرات والمعـارف والعلوم، بل إنه أتقن كلَّ ما ألّف فيه في مجالات: الفلسـفة،

الفلك، الجغرافيا، الجيولوجيا، الصيدلة، الرياضيّات، الترجمة، والتاريخ والتأريخ. فجاء منجزه في مدونات الرحلات كجزء من مشروعاته ومؤلفاته العلمية. وبعبارة أدقَّ، فإننا لايمكن أن نفهم البيروني الرحّالة والمؤرخ بمعزل عن فهم نبوغه وعطائه في علوم أخرى.

لقد اعتنى البيروني مبكرًا بالبحث والتأليف في حياة الشعوب: تقاليدها، وصناعاتها، والتعريف بأهلها، بجانب الجانب الجغرافي المتعلّق بالسّهول والجبال والوديان والأنهار والبحار، والذي ينعكس بلا شك على حياة السكّان وطبائعهم ونشاطهم الاقتصاديّ، وحياتهم الاجتماعيّة، مع دراسة وتوثيق علومهم ومعارفهم.

ونظرًا لإجادته اللغة السنسكريتية، فإنّ السلطان محمود الغزنوي اصطحبه معه في فتوحاته إلى الهند، ثم طلب منه تأليف كتاب، يشمل تعريفًا ببلاد الهند، وثقافتها، وتاريخها، وعادات أهلها، ودياناتها، بهدف مساعدة دعاة المسلمين في نشر الإسلام بين ربوعها، وهو ما قام به البيروني بالفعل(٢).

في ضوء هذه الغاية، جاء كتاب البيروني عن الهند نوعيًّا في صياغته ومعلوماته والمستهدف منه، فموسوعية البيروني العالم والأديب والفيلسوف؛ أهّلته ليقرأ المجتمع الهندي قراءة علميّة، ويقدّم معلومات وافية مفصلة، تتجاوز المفهوم البصري الذي يعتمده الرحّالة عادة، في تسجيل ما يشاهدونه أو يعيشونه بأنفسهم، إلى تقديم كتابٍ علميٍّ متكامل عن مجتمع الهند بكل اتساعه وضخامته؛ خدمةً لمشروع السلطان محمود الغزنوي، الذي كوّن سلطنة ضخمة في أفغانستان، وكان له طموحه الأكبر في فتح الهند، ونشر الإسلام فيها، فطلب من البيروني مرافقته في غزواته للهند، ثم وضع مؤلَّفًا جامعًا عنها، ليتواكب الفتح مع العلم، ويمتلك دعاة الإسلام في الهند معرفة كافية على أسس علميّة، ووفق معلومات دقيقة.



شنّت الدولة الغزنوية حملات واسعة على شمال الهند، من خلال حملات عسكرية متتابعة، وصل عددها إلى تسع عشرة حملة، خلال الفترة من (٣٦٧هـ/ ٩٧٧م-٤٢٢هـ/١٠٣٢م)، وقاد السلطان محمود بن سبكتكين بنفسه منها ستّ عشرة حملة، في أكبر عملية فتح إسلامي للهند في العصور الوسطى، حتى أصبح الإسلام والثقافة الإسلامية راسخين في المجتمع الهندي، على المستوى العقدي والاجتماعي والثقافي. وكانت خطط الغزنويين الحربية دالّة على خبرة ودراية في مواجهة الأخطار، وفهم طبيعة الشعب الهنديّ؛ في سعي منهم لأن تكون الهند ميدانا رحبًا لنشر الإسلام، ودعم الدولة الغزنوية بمواردها الاقتصادية[٣]. وهي الفترة التي عاصرها البيروني، وكان شاهدا على أحداثها، فلا غرو أن يتوحّد خلف مشروع السلطان محمود، بوصفه أحد العلماء الملتحقين ببلاطه، ومن الذين نالوا حظوة كبرى لديه، نظرًا لتميّزه العلميّ، ونبوغه بشهادة علماء عصره جميعًا.

وقد ربطتْ صداقة وطيدة بين البيروني والسلطان محمود، والأخير كان أكبر من البيروني بعامين فقط، وكان السلطان ذا همّة عالية، ورغبة في تكوين مملكة قويّة، وهذا ما حققه في العام ١٠٢٠م، حيث امتدت حدود مملكته ألف ميل من الشمال إلى الجنوب، ونحو ضعفي ذلك من الشرق إلى الغرب[٤].

إنّ قرب البيروني من السلطة لا يعني ممارسته النفاق السياسيّ الممجوج الذي نجده عند رحّالة آخرين، والذي يُكسِب أصحابه الكثير من الشهرة والذيوع، لذا، تأتي مدوناتهم الرّحلية متناغمة مع ميول أهل السلطة في زمنهم [٥]، فأخلاق البيروني لاتعرف التزلّف ولا النفاق، فهو عالم ومخترع ومبتكر، نال شهرة ضخمة منذ شبابه، وكان شديد الإخلاص في طلب العلم ونشره، وهو ما أبانته رحلته للهند التي شملت تأريخًا وتدوينًا وتسجيلًا وتوثيقًا لأحوال الهند وثقافتها، وجاء خطابها المدّون- كما سيرد بعدئذ- بموضوعيّة وحياديّة، مستقاة من روحه الموضوعيّة.

هـذا، وبالنظر إلى السياقات التاريخيّة في القرن الرابع الهجريّ؛ زمن البيروني، وما قامت به السلطنة الغزنويّة من جهود في فتح الهند ونشر الإسلام وسط آسيا، على الرَّغم من كونها مملكة مستقلة عن الخلافة العباسيّة في بغداد، نجد نظرة البعض السلبية إلى الممالك المستقلة البعيدة عن عاصمة الخلافة في بغداد، ويسود رأيٌ بأن هذه الممالك كانت علامة على تفكّك دولة الخلافة الإسلاميّة، وتراجعًا في سلطة الإسلام، قياسًا على حقب الدولة الإسلاميّة المركزيّة والوحدويّة، التي حكمت المسلمين منذ الخلافة الرّاشدة والأمويّة وحتّى الخلافة العباسيّة الأولى ثمَّ الثانية، التي وإن شهدت مراحل ضعف، في حقب زمنيّة عديدة، إلّا أنّها كانت رمزًا دينيًّا وحضاريًّا وسياسيًّا سامقًا، وهذا ما يشهد له التّاريخ بأنّ سلطة الخليفة في بغداد كانت دومًا محل تقدير واحترام من ملوك وسلاطين المسلمين في الأقاليم والدول المستقلّة، بل إنهم حرصوا على التبعيّة له، والمناداة باسمه على المنابر. فلم يكن من شأن الانقسام بين بلدان العالم الإسلاميّ أن يؤدي إلى ضيق معنى الإسلام والوطن الإسلاميّ، بل صارت كل الأقاليم- وإن تعدَّدت- تؤلِّف مملكة واحدة، تسمَّى (دار الإسلام)، تمييزًا لها عن دار الكفر (أو الديانات الأخرى) في الأمم المجاورة، مما أدّى إلى قيام وحدة إسلاميّة لا تتقيّد بالحدود السياسيّة، تمتد من كاشغر في أقصى الشرق إلى السوس الأقصى في المغرب، كما تشمل أيضًا بلاد الهند، وبحر فارس، ومملكة السودان، وشمالي بلاد الرُّوم، وما يتّصل بها من أراضي التُّرك والصَّقالبة والبلغار والأرمن وغيرهم[٦]،فمن أهم مزايا الحضارة الإسلامية أنها شديدة التنوع في أشكالها الثقافيّة وتنظيماتها الاجتماعيّة في البلدان المفتوحة، مع احتفاظها بجوهرها الإسلاميّ، في مسرح جغرافيٍّ هائل الاتساع[٧]، ممَّا أدَّى إلى بناء مجتمع متعدِّد الأعراق والجنسيّات داخل العالم الإسلاميّ، مع توافر سبلِ الاتصال الإيجابيّ مع الشعوب الأخرى، بتنشيط التجارة، فتواصل المسلمون مع شعوب الهند والصين مبكرًا، قبل فتح هذه البلاد بقرون[٨]، مما ساعدهم على تقديم صورة مشرقة عن الإسلام.



وقد تنقّل البيروني وغيره من العلماء في أرجاء دار الإسلام، طالبًا العلم، ومتواصلًا مع الملوك والسلاطين، بدون النظر إليه بوصفه غريبًا عنهم. وجاءت جهود السلطان محمود الغزنوي للتّمدّد في بلاد الهند، ونشر الإسلام فيها، وضمها إلى مملكته، مستظلًّا براية الخلافة الإسلاميّة، ومواصلًا جهود من سبقوه من فاتحين، موقنًا أن ذلك يصب في صالح مملكة الإسلام مترامية الأطراف.

أما الإسلام في الهند، فتذكر المراجع التاريخية أن الثقافة الإسلاميّة وردت إلى الهند من جهة خُرَاسان وبلاد ما وراء النّهر، فشعوبها هي الأقرب في الجغرافيا للهنود، وكان جنود الفتح الإسلامي من أبنائها، ولما بلغ الإسلام الهند، أنتج حضارة إسلاميّة امتاحت من حضارة الهند القديمة وفلسفاتها وعلومها، كما نهض من بلاد الهند جَمّعٌ كثير من العلماء المسلمين، خاصة عندما صارت لاهور قاعدة الملك في أيام الدولة الغزنوية وتطوّرت لتكون مركزًا للعلوم والفنون. وتتابع الأمر مع جهود ملوك المملكة الغورية الذين فتحوا مدينة دلهي واتخذوها عاصمة للهند، وأصبحت قبلةً ومآبًا للعلماء، حتى وفد إليها أرباب الفضل والكمال من كل ناحية وبلدة، فدرسوا وأفادوا عهدًا بعد عهد، ولم تزل كذلك إلى آخر عهد الملوك التيمورية(٩).

وهو ما يفسر لنا طبيعة كتاب البيروني عن الهند، وما فيه من تفصيل وتعميق وإحاطة بكل علوم الهند ومعارفها وفنونها، ليكون مرجعًا للدّعاة المسلمين. فالهند أمّة عظيمة التاريخ والحضارة والثقافة، ولابدَّ من فهم هذا، لمن أراد الولوج إلى عالمها، ونشر ديانة جديدة مثل الإسلام، مصحوبة بثقافة وعلوم ومنجز حضاريّ كبير. وبعبارة أخرى: لا يمكن غزو أمّة متحضرة، ونشر دين ومعارف وثقافة جديدة فيها، بدون الفهم العلميّ والموضوعيّ لثقافتها وحضارتها، وإلا ستبتلع الأمة المتحضرة الغزاة وتشبعهم بثقافتها، إذا كان الغزاة همجًا رعاعًا لاحضارة

ولا ثقافة راقية عندهم. والمثل الواضح على ذلك التتار، الذين كانوا شعبًا بدائيًّا، لا يعرفون استقرارًا ولا حضارة، بضاعتهم ونشاطهم منحصر في الغزو والنهب، وإسقاط الدول، وقد تمكنوا من تكوين إمبراطورية ضخمة، بعدما أفنوا شعوبًا، وهدموا ممالك، إلاّ أنهم سرعان ماتأثروا ثم ذابوا في شعوب دار الإسلام، بحضارته الزاهرة، التي غزوها، في بلاد فارس والمشرق العربيّ والشام، بفعل عوامل متعددة منها: إعجابهم بالتّصوف الإسلامي واتّباعهم إيّاه، وزواجهم من المسلمات، واقتداؤهم بما رأوه من تحضّر السكان المسلمين في وسط آسيا وفارس والعراق، فأسلموا وخدموا الإسلام عندما حكموا(١٠).

وقد استبق البيروني كتابه عن الهند، بالاطّلاع على تراث الهند العلميّ، من خلال مصاحبته للسلطان محمود الغزنوي ثلاث عشرة مرة إبّان حملات السلطان على الهند، فخالط البيروني المجتمع الهندي، نخبةً وعامةً، وقرأ أسفارهم، وعرف تقاليدهم وشرائعهم، وألمّ بطرائق تفكيرهم وحكمتهم(١١).

كما قام البيروني بترجمة اثنين وعشرين كتابًا من اللغة السنسكريتية إلى العربية، ومن أبرز هذه الكتب: جوامع الموجود لخواطر الهنود، قانون الأركند، خيال الخسوفين، راشيكات الهند، الساماكاليتا وفيه نظام الأعداد الهندي ترجمة النظريات الرياضيّة لبرهما سدهانتا. كما قام أيضا بترجمة كتبٍ من العربية إلى السنسكريتية، وجلُّها من التراث الإغريقي، ومن أبرزها: أصول إقليدس، كتاب المجسطي لبطليموس، كتاب عن صنعة الإسطرلاب(١٢). مما يعني أن رحلات البيروني لم تكن للمشاهدة والسياحة والتعرّف على أحوال شعوب الهند فقط، وإنّما اندمج في الحياة العلميّة الهنديّة، وغشى مكتباتها ومجالسها العلميّة، فقام بما يشبه عملية الحوار الحضاريّ والثقافيّ، عبر الترجمة والاطلاع والحوار، في جهد دؤوب متميّز.

فجاء كتابه عن الهند متميزًا في إضافته العلميّة والأدبيّة. وكما قال أحد

الرحالة: «إذا لم تضف الرحلات إلى قائمة المعرفة البشريّة، فإنّها تصبح ضارة»؛ لأنها شهادة على العصر والمجتمع الذي عاشه المؤلف الرّحالة، فيجب أن تكون شاملة لكافة جوانبه، ويحرّكها هدف نبيل. ويجب أن تكون دقيقة في معلوماتها، وإحصاءاتها، وتواريخها، وحوادثها، وتفصيلاتها، وأيضًا خرائطها ورسومها وصورها. فالرحلة وثيقة حيّة، ونتاج معاينة ومعاناة، وأذواق منقحة، مما يجعلها مصدرًا هامًّا للدراسات التاريخيّة المقارنة، والدراسات الثقافيّة بجانب كونها من أدب الرحلات[١٣]. فمدوّنات أدب الرحلات الرصينة، تتأسس على الإضافة المعرفية العميقة، والتي تتجاوز الفردانية والأحاديث السائرة عن أحوال الملوك، قصورهم وخدمهم، ومظاهر العمران وأحوال الشعوب في البلدان[١٤]، إلى تقديم نشاط الإنسان وإبداعه وابتكاراته وثقافته، وهذا لابد أن يكون في واجهة الصورة، أما ماعداه فيكون في خلفيتها[١٥]. فبعض الرحّالة دونوا الطرائف ووصفوا العجائب في حياة الشعوب، وبالغوا في ذلك من أجل جذب القراء لكتبهم، ولكن البيروني نأى عن ذلك، ليقدّم لنا كتابًا جمع العلم في منتهاه، والتاريخ وأخباره، وعرّفنا بطبائع الهنود النفسية والاجتماعية، ولم يهمل معالم الهند، وما تتميز به في طبيعتها، وأيضًا في مبتكراتها العمرانية والعلميّة، ليكون كتابه فريدًا يجمع التاريخ والعلوم وأدب الرحلات والفنون.

تتبقى نقطة مهمة، تجب الإشارة إليها، وتتعلق بتنازع دول عديدة للبيروني في جنسيته، فأوزبكستان تتفاخر به، وهي التي تضمّ سمرقند وطشقند وبخارى وترمذ، وأخرجت كبار علماء الحديث أمثال: البخاري ومسلم والترمذي، كما تدّعي إيران، نسبته إليها، فقد أجاد لغتها وعاش فيها، وكذلك جمهوريتا طاجيكستان وأفغانستان، وقد قضى البيروني فيهما شطرًا من حياته، كما تتفاخر القومية التركية بنسبته إليها، لأنه ولد في خوارزم، التي هي من أعمال جمهورية تركستان حاليًّا. ونتمسك به نحن العرب، لأن جلّ مؤلفاته كانت

باللغة العربية[١٦]. وفي الحقيقة هذا التنازع مبني على أساس التعصب للهويات القومية، وجنسيات الدول التي رسمت حدودها حديثًا، وكل هذا، لم تعرفه الحضارة الإسلامية، وقد عاش في كنفها عرقيّات وشعوب وجنسيات كثيرة، اعتنقوا الإسلام، وتعلموا علومه، وأبدعوا بالعربية، مثلما دونوا كتبًا بلغاتهم الأصلية، وفي جميع الأحوال، كان التفاخر الشعوبي نزعة مدانة دينًا وأخلاقًا، ولا يمكن قراءة المنجز الحضاري الإسلامي على أسس قومية أو حدودية.

كتاب رحلة البيروني:

يقع كتاب «تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة» وفق النسخة التي بين أيدينا في (٦٤٧) صفحة، شاملة الفهارس والجداول والرسومات والخرائط، وهو يشكل مرجعا علميا شاملًا عن الهند، لأنه يحمل منهج علماء المسلمين الثقاة في قراءة المجتمعات غير المسلمة، قراءة دقيقة، تتوخى الحق والحقيقة، وتنتصر لما هو موضوعي مؤصل علميًّا، مما جعل الكثير من دارسي تراث البيروني، يتوقفون متعجبين أمام هذا الكتاب، ورأى بعض المستشرقين أن كل ما كتب عن الهند قبل هذا الكتاب يعد لعب أطفال، بجانب تحقيق البيروني[١٧].

وستجري دراستنا لهذا الكتاب وفق منهجية قوامها التحليل الدلالي للمتن النصيّ، الذي لا يكتفي بما هو وارد في النص المدون، وإنما يبدأ من العنوان، يقرأه في ضوء مضمون الكتاب، والغاية منه، كما ينظر إلى الفهرس بأبوابه، والذي يقدم رؤية متكاملة منسقة، توضح دقائق الكتاب. ومن ثم ينصرف الجهد إلى تحليل الخطاب، والسعي إلى الوقوف على مزايا الأسلوب، ومنهجية التناول، وطريقة إيراد المعلومات، والقارئ المستهدف ضمنيًّا، وغير ذلك من النقاط، التي يفسر بعضها بعضًا، في ضوء أن الباحث لا يكتفي بالعرض، وليست تلك غايته، وإنما يسعى إلى الغوص حول الدلالات، والوقوف على الأبعاد والمرامي، فالنص

لا ينفصل عن عصره، مثلما هو جزء لا يتجزأ من ذات مؤلفه، وتحضر في ثنايا المتن الكثير من الإشارات العلمية والفكرية، النابعة من الثقافة الإسلامية، ممزوجة بالثقافات الأخرى.

العنوان والنهج والطروحات:

يمكن أن نعد العنوان مدخلًا واستراتيجية لفهم الكتاب، ذلك أن العنوان جزء أساس من متن النص، ولا يمكن النظر إليه بوصفه اختزالًا للنص، وإنما له مقاييسه وأشكاله وأسسه، التي توجب التوقف عنده فحصًا ودرسًا على مستوى اللفظ والدلالة. فالعنوان يؤلّف «على مستوى التعبير مقطعًا لغويًّا يعلو النص، تتحكم به قواعد سيميائيّة، تعمل على بلورة موضوعه، وتحديد رمزيتها وترميز دلالتها، في مفردة أو عبارة ذات أجزاء، تتعاقب لأداء وظيفة صياغة العنوان وتشكّله؛ انطلاقًا من أن ثمة توازيًا شكليًّا ودلاليًّا بين العمل وعنوانه»[١٨]، والدلالة السيميائيّة تعني أن العنوان يتحول من مجرد جزء من النص/ الكتاب، إلى كونه علامة تميز الكتاب، خاصة إذا وجد الكتاب رواجًا لدى النخبة والعامة، وهو ما تحقق لكتاب البيروني منذ تأليفه.

فمن الملاحظ أن مؤلفي الكتب التراثية حرصوا على التجويد في اختيار عناوين كتبهم، وصياغتها بشكل جذاب لغويًّا ونغميًّا، مع ارتباطها بالدلالة الكلية للكتاب، وهو ما نجده في عنوان كتاب البيروني، والذي صيغ مفصلًا معمقًا دالًّا، وفق مادرجت عليه الكتب التراثية فالعنوان: «تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة»، مميز في بنيته اللغوية، من خلال السجع بلفظتي(مقبولة، مرذولة) وكلتاهما طباق دالٌّ على التوكيد والنفي، التوكيد من خلال الدلالة المتوخاة وهي تقديم معلومات ومعرفة محققة يقبلها العقل، والنفي لما عداها من أخبار ومقولات راجت لدى القارئ العربي عن الهند، ولا سند علميًّا لها، واقعيًّا أو مرجعيًّا.

فيمكـن القول إن العنوان يمثل اسـتراتيجية محورية لفهـم منهج البيروني في كتابه، والذي يسـعى إلى تقديم كل ما هو محقـق وعلمي عن المجتمع الهندي، ومناقشـة ونقض كل ما هــو غير علميّ. وبذلـك يكون العنوان علامــة على رؤية ومنحـى، يعلن عنهما البيروني منذ البدء، ويصـبح الكتاب نفسـه «بنية معادلية كـبرى؛ طرفاهـا العنوان/النص، وربما شـكل بنيـة رحميّة تولّـد معظم دلالات النصـ»[١٩]، بمعنـى أن دلالات عديـدة يمكـن إنتاجها من خلال دراسـة علاقة التواشـج بـين العنوان والمتن النصـيّ إذا أعدنا فهم العنوان في ضـوء مضـمون الكتاب.

يسـتهل البـيروني مقدمـة كتابه بتوضـيح أمر يتّصـل بلبّ مدونـات أدب الرحـلات، ألا وهـو التفرقة بين الخبر المنقول عن كتابات أو مرويات سـماعية، وبين من يعاين ببصره ويشاهد بأم عينيه، ويشهد بنفسه، فالأول يعني أن المؤلف ينقل عن آخرين شـفاهة أو تدوينًا، أما الثاني فإن المؤلف يسـجل ما رآه بعينيه، وليس من رأى كمن سـمع، وهو مـا يجذب القرّاء لأدب الرحـلات، فالرّحّالة هو مؤلِّف يسـجل كتابيًّا ما رآه بصـريًّا؛ لذا، يقرر البيروني في خطبة الكتاب: «إنما صدقَ قولُ القائل: (ليس الخبر كالعَيَان)، لأن العَيَان هو إدراك عين الناظر عينَ المنظور إليه، في زمان وجوده، وفي مكان حصوله، ولولا لواحق آفات بالخبر لكانت فضـيلته تبـين على العيان والنظر لقصـورهما على الوجود الـذي لا يتعدى آنات الزمان، وتناول الخبر إياها، وما قبلها من ماضـي الأزمنة، وبعدها من مقتبلها، حتى يَعُمَّ الخبر لذلك الموجود والمعدوم معًا. والكتابة نوع من أنواعه، تكاد أن تكون أشرف من غيرها، فمن أين لنا العِلم بأخبار الأمم لولا خوالد آثار القلم؟»[٢٠].

إنه يثبت أهمية المعاينة الذاتية من قبل المؤلف الرحالة، ويجعلها فوق نقل الخـبر، ولا يعنـي ذلك- عنده- التقليـل من الخبر المدون والمنقـول، وإنما يجعل الخبر الممتزج مع الرؤية العينية المباشرة؛ يعلو على الخبر المنقول، مع الإشادة في

الوقت نفسه بأهمية الخبر المنقول، فكيف نعرف أخبار الأمم القديمة لولا كتب التاريخ وأخبارها؟ وهو نهج موضوعي دال على سمو شخص البيروني، الذي لا يحقر جهدًا أو عطاء. مع تحذيره بعدئذ من أن هناك ناقلي أخبار لا يتحرون الحقيقة، «لتفاوت الهمم، وغلبة الهراش، والنزاع على الأمم»، وهناك من هو « مخبر عن كذب، في طبقة يحبهم لشكر أو يبغضهم لنكر... ومن مخبر عنه متقربًا إلى خير بدناءة الطبع، أو متقيًا لشرٍّ من فشل أو فزع»[٢١]، وغير ذلك من دواعي الاختلاق وعدم التحقق في إيراد الخبر ونشره، وكلها تنأى عن العلمية والموضوعية.

ثم يخلص إلى قضية الكتابة والأخبار عن الهند، وكيف أنها تعرضت إلى كثير من النقل المغلوط، والإخبار المذموم، فيقول موضحًا مشكلة من تناول أديان الهند ومذاهبهم: «إلى أن أكثرها (مما) هو مسطور في الكتب؛ هو منحول، أو بعضها عن بعض منقول ملقوط، مخلوط غير مهذوب، على رأيهم غير مشذّب، فما وجدتُ من أصحاب كتب المقالات أحدًا قصد الحكاية المجردة من غير ميل ولا مداهنة، سوى أبي العباس الإيرانشهري... (فقد) حرص على تحرير ما عرفته من جهتهم ليكون نصرة لمن أراد مناقضتهم، وذخيرة لمن رام مخالطتهم»[٢٢].

يتضح من الاقتباس السابق، أن البيروني انتهج في تدوين كتابه نهجًا جمع مابين الأديب الرّحّالة عندما يدوّن رحلاته، ومنطق العالِم عندما يتحرى المعلومات. فقد اطلع على كلّ ما سجّله المؤلفون المسلمون عن الهند وأديانها ومذاهبها، واكتشف أن غالبية ما ذُكِرَ عنها مشوه أو يعتريه الكذب والنقل الخطأ والخلط الذميم، وعدم التّهذيب ولا التّشذيب، وما وراء ذلك من أهواء، لا تصمد أمام الموضوعية العلمية. واستثنى في ذلك عالمًا واحدًا، وهو أبو العباس الإيرانشهري، الذي وضع سفرًا عن الأديان الأخرى، ونقل بدقة عن بعض المراجع الهندية أخبارًا عن عقائدهم، وهذا ماتحقق منه البيروني بالفعل. ثم ينبّه على

أمر مهم، وهو أن المعرفة الصحيحة عن المجتمع الهندي هي السبيل الوحيد لمن أراد الفهم ثم النقاش والنقض والنقد لهم.

ولو أسقطنا مناهج قراءة المجتمعات الأخرى المعاصرة على ما انتهجه البيروني، سنجد أنه يلتقي مع منهجية كتاب «الاستشراق» لإدوارد سعيد، القائم على الانتصار للشرق والإسلام كما هو وواقع ومفهوم لدى المسلمين، وليس كما تخيله المستشرقون المرتبطون بدوائر الاستعمار، فصاغوا كتابات عن الشرق تتوافق مع العقلية الأوروبية الاستعلائية، التي تحط من شأن الشعوب والأديان المخالفة لها؛ لذا، يشدّد إدوارد سعيد على أهميّة أن تقدّم ثقافات الشعوب منزهةً عن السياسة، بمعنى أن تكون علمية محايدة، تعلو على المعتقدات المذهبية وترتقي فوق الحزبية أو التحيزات ضيقة الأفق[٢٣]، والتي تنتج في النهاية التشويه وعدم الدقّة، والتعميم القائم على الجمود المذهبي والقناعات المسبّقة[٢٤].

ولا نذهب بعيدًا عندما نقرّر أنّ البيروني واجه مشكلات مع العقلية العربية، عندما وجد مفاهيم مغلوطة شائعة بين المسلمين، لاتقدم الحقيقة عن الهند. لذا، أدان أن تصبح الهند وجماعاتها وأعراقها ودياناتها وعلومها «من الأسمار والأساطير يُستمَع لها تعللًا بها والتذاذًا، لا تصديقا لها واعتقادا»[٢٥]. وبذلك يرفض الصورة الشائعة عن الهند في مخيلة المسلمين، بوصفها بلاد العجائب المروية للسمر.

على صعيد آخر، فإن البيروني يشدّد على أن كتابه ينأى عن محاججة عقائد الهنود من المنظور الإسلامي، فيقول: «وليس الكتاب كتاب حجاج وجدل، حتى أستعمل فيه بإيراد حجج الخصوم، ومناقضة الزائغ منهم عن الحق، وإنما هو كتاب حكاية، فأورِدُ كلام الهند على وجهه، وأضيف إليه ما لليونانيين من مثله لتعريف المقاربة بينهم، فإن فلاسفتهم وإن تحرّوا التّحقيق فإنهم لم يخرجوا فيما اتصل بعوامهم عن رموز نحلتهم، ومواضعات ناموسهم، ولا أذكر مع كلامهم

كلام غيرهم، إلا أن يكون للصوفية أو لأحد أصناف النصارى، لتقارب الأمر بين جميعهم في الحلول والاتحاد»[٢٦]. لقد أوضح البيروني أن كتابه كتاب «حكاية»، ومفهومها لغويًّا: مايُحكى أو يُقصّ، وقعَ أو تُخيِّلَ[٢٧]، فالحكي يشمل الضدين، ما هو قائم وحادث بالفعل على وجه الحقيقة، وما هو مُتخيَّل، وإن كان السيوطي يحدد دلالة اللفظ بإيراد لفظ المتكلم على حسب ما أورده في الكلام[٢٨]، أي وفق مقصود المتكلم الحقيقي، فينفي بالتالي عنصر التخيل أو الاختلاق. وقد احتاط البيروني، فذكر بعدها: «فأورِدُ كلام الهند على وجهه.. كما لا أذكرُ مع كلامهم كلام غيرهم»، أي يذكر المعلومة عن الهند على حقيقتها، متحرِّيًا أن يورد كلامهم بشكل مستقلٍّ، قبل أن تحضر المقارنة مع معارف اليونان أو الصوفية أو النصارى، كما يورد، وبكثرة مُختلَف السرديات والحكايات المرتبطة بالمعلومة المذكورة، والمأخوذة من مصادرها الأصليّة في المراجع الهندية، أو أن البيروني قد سمعها بنفسها في محاوراته ورحلاته.

يلتقي هذا النهج مع ما يسمى في أدب الرحلات بـ« التدوين الموضوعي»، ويعني: اختيار موضوعات بعينها، والانطلاق منها إلى وصف مكان أو شعب، ولابد أن تتسق هذه الموضوعات مع الهدف الأساسي الذي من أجله دوّن الرحال رحلته، وقد يراعي في هذا الاختيار التسلسل الزماني المكاني أو لايراعي، وقد يتخذ هذا النهج شكلًا علميًّا، فيتتبع موضوعا بعينه»[٢٩].

فالموضوع هو الهند مجتمعًا وثقافة وديانات ولغة وعلومًا، وقد احتوى الكتاب على ثمانين بابا، تغطِّي كلَّ شيء عن الهند، ويمكن بلورتها في الموضوعات الآتية[٣٠]:

أولًا: ما يتعلق بدياناتهم، وعقائدهم، ويشمل الأبواب (١- ٧، وكذلك ١٠- ١٢، ٢١،٢٣، ٢٤، ٢٦، ٣٢، وكذلك من ٤٣- ٤٦، وكذلك من ٦٥- ٦٩، وكذلك من ٧٠ – ٧٥ ، ٧٧- ٧٨)، وذلك بذكر ما يتصل بإيمانهم بالله -سبحانه وتعالى- مابين إيمان الخواص بالله، واعتقاد العوام وفي ذكر معتقداتهم الحسية

والعقليــة، وفي ســبب الفعــل، وتعلــق النفــس بالمــادة، في ذكر المجامع ومواضـع الجزاء في الجنة والنار، وكيفية الخلاص من الدنيا، وكذلك ما يتصــل بالســنن والنواميس والرسـل، وعبادة الأصنام والمنصوبات، والكتب الدينية عندهم مثل: بيــذ، والبرانات، وكتبهم المليّة. وتصــوّرهم عن الجنّة والنّار والســموات السـبع والأرضــين، وخلق العالم وفنائه. والقصص الدينية المشــهورة عندهم. ومواسم الحجّ ومواضع الزيارات الدينية، وتقديم القرابين، والمباح والمحظور من الأطعمة والمشروبات، والصــدقة، وآداب النكاح، وفي الكفارات، وعقوبة الزاني والسارق، والصــيام وأيامه وآدابه، وحكم الميت، والتعامل مع جســده، وذكر الأيام المعظمة والمنحوسة عندهم، ومواسم الأعياد والأفراح.

أما الموضــوع الثــاني فيتعلق بأجناس الخلائق وأســمائهم، ويشــمل الأبواب (٨ ، ٩، ٦٣، ٦٤) ، ويتناول طبقات المجتمع الهندي، ومراتب البراهمة وتدرجاتهم.

والموضوع الثالث عن علوم الهند ولغاتها وآدابها، وتشمل الأبواب (١٣– ١٧، وكذلــك ١٩،٢٢ ، ٢٩، وكذلــك من ٥٠ – ٥٧) فيذكر ما جــاء في كتبهم من النحو والشــعر، وكذلك علوم النجوم والفلك، والجهات العشر وعلاقتها بهبوب الرياح، وموازينهم للســلع، وحــروف الهجاء، وطــرق الكتابة وأنواع الخطــوط، والأرقام الحســابية، وعلم الكيمياء، وما يحبونه في الصــيد البري، وعلوم الفلك والنجوم والكواكب.

والموضــوع الرابع حول جغرافية الهند وتضاريســها وعلــوم المناخ والطقس، والزمن، وتشمل الأبواب(١٨ ، ٢٥ ، ٢٧ ، ٢٨ ، وكذلك من ٣٠–٤٣، وكذلك من ٥٨– ٦٢ ، ٧٩، ٨٠) ، بوصف الجبال والأنهار، وتصورهم عن القطب الجنوبي، ووصف الأنهــار التي تخرج من جبالهم. وتصــورهم عن المعمور مــن الأرض، ومقولاتهم عن خطوط الطول، وتقســيم اليوم، ووصــف الليل والنهار، وما يقصر عن اليوم، وتقســيم الشــهور والســنين، والفصــول الأربعة، وحركة المد والجــزر، والكواكب السبعة.

أما الموضوع الخامس ففي التاريخ وأخبارٍ عن بعض ملوكهم، ويشمله الباب[٤٩].

وعندما نتأمل ماسبق، نجد جملة أمور، يمكن مناقشتها في النقاط التالية:

أولها: الرؤية الشمولية التي ألّف بها البيروني كتابه، وجعله شاملًا لكل جوانب الحياة في المجتمع الهندي، معتمدًا في ذلك على اطلاع دقيق وموثق على العلوم الهندية، ومعاشرته المباشرة للنخبة والعامة، فجاء كتابه سفرًا ضخمًا، دقيقًا في معارفه.

ثانيها: تنوعت موضوعات الكتاب، لتجيب عن مختلف الأسئلة المتوقعة والمتصلة بمعتقدات وأديان وعادات وتقاليد ومعارف الهنود، بما يجعلها تقدم صورة شبه متكاملة عن الهند؛ المجتمع والناس والتقاليد والحياة، وبما يخدم أي داعية أراد التوغل في المجتمع الهندي، ومخاطبة شعبها، أو كل من سعى لمعرفة صحيحة، بعيدًا عن القصص المتواترة عن الهند، والتي تحصره في حكايات خرافية أو أديان وثنية، وعقائد كافرة أو تكتفي بما ورد من حكمة على ألسنة الطير والحيوان، في كتاب كليلة ودمنة، والذي ترجمه عبد الله بن المقفع (١٠٦ - ١٤٢ هـ)، واكتسب مكانة كبيرة في الثقافة العربية، لقصصه الشيّقة، وحكمته البليغة، وإن كان قد قدّم معرفة مبتسرة عن المجتمع الهندي، تجعله يبدو غائما غير واضح المعالم في مخيلة القارئ العربي.

ثالثها: جرى التركيز بشكل لافت على الدين والمعتقد، وقد احتل (٣١) بابًا من الأبواب الثمانين للكتاب، ناهيك عن اتّساع المساحة المدونة وكثرة ما تحويه من تفصيلات شارحة وموضحة، قياسًا ببقية الموضوعات الأخرى، وربما يعود هذا إلى رغبة البيروني في تعريف العربي المسلم بديانات الهند، التي تشكل أساسًا لحضارتها وثقافتها، وليست مجرد شعب يركب الأفيال، ويقدّس الأبقار؛ كي يعي القارئ المسلم حقيقة المجتمع الهندي، ومن ثم يحسن التعامل معه، فلا يمكن

لأي داعية مسلم أن يدعو إلى الإسلام، أو يتواصل ثقافيًّا وحضاريًّا مع مجتمع عريق في الحضارة، متديّن في ثقافته وعاداته وتقاليده. وإذا دققنا في طبيعة المعلومات الواردة عن الدِّين، نجد أن البيروني استند إلى أصول الكتب الهندية الدينية القديمة، فلم ينقل عن غيرهم، ولم يكتب ما شاهده من ممارسات دينية فقط، وإنما قرأ الكتب، ودخل المعابد، وعاين الشعائر، قبل أن يكتب. أيضًا، فإن البيروني أورد كل ما يتعلق بالديانات الهندية المتنوعة مابين الوثنيّة والطوطميّة والأصنام وغيرها، ومنهم من يعتقد بوجود الله وألوهيته.

ومن أبرز ديانات الهند: البوذيّة، والجينيّة، والسيخيّة، وقد انقسمت هذه الأديان إلى عقائد كثيرة، بآلهة متعددة، ورموز وأشكال لا حصر لها، كما آمنوا بأن هناك رئيسًا للآلهة، يندرج تحته مرؤوسون، أي: آمرٌ ومأمورون، وأن رئيس الآلهة هو ربُّ الأرباب، وإله الآلهة، ثم جمعوا الآلهة في إله واحد، وأقروا بعقيدة التثليث التي تشابه عقيدة المسيحيين، كما أنهم فتحوا الباب للإيمان بالمسيحية[٣١]، وقد نبّه البيروني إلى ذلك، مفصلاً كلّ ما يتصل بالأخلاق والسلوكيات والعبادات، وكذلك أمور الصيام والصدقة والحج والوفاة، حتى أحكام الحيض والنفاس والنكاح.

ومن هنا، يسهل على الداعية المسلم التعامل مع هذه الفسيفساء الدينية، ونشر الإسلام بعقيدته التوحيدية الحنفيّة النقيّة، وتبيان صفات الله وأسمائه، فهي ديانة لها منظومة متكاملة من الأخلاق والسلوكيات، ويوفر إجابات عن مختلف الأسئلة الدنيويّة والأخرويّة، فيكون بمثابة المنقذ لمن أراد الدين الصحيح، خاصة إذا تعلق الأمر بمحاورة أقوام لهم معتقداتهم وطقوسهم الوثنيّة.

رابعها: أشار البيروني إلى التركيبة الاجتماعيّة المعقّدة للمجتمع الهندي، المستندة إلى طبقات، أساسها ديني ودنيوي، يقول: «وقد كان الملوك القدماء المعنيون بصناعتهم يصرفون معظم اهتمامهم إلى تصنيف الناس إلى طبقات ومراتب، يحفظونها عن التمازج والتهارج، ويحظرون الاختلاط عليها بسببها،



ويلزمـون كل طبقـة ما إليها مـن عمل أو صـناعة أو حرفة، ولا يرخّصـون لأحد في تجـاوز رتبتـه، ويعاقبـون من لم يكتفي بطبقتـه»[٣٢]، وربما كان هذا السـبب الذي وقف عائقًا بعض الشيء أمام انتشار الإسلام، عندما شاهد الهنود معاملة المسـلمين لبعضهم البعض، وقيمة المساواة بينهم، خاصة أن فاتح الهند السلطان محمـود الغزنـوي كان نموذجًا في الخلق القويم، حريصًـا على نشـر الإسـلام، غير مكتف بالسـيطرة على البلاد وضـمها له، فلم يعتدّ الهنود أن يجدوا شـعبًا يتساوى فيه الجميع عندما يصطفون في الصلوات، أو يجلسون للطعام، دون أثرة أو تفاخر أو أنانيّة.

وتعتمد تراتبية الناس في المجتمع الهندي على النسب، فهناك أربع طبقات، هي على الترتيب في المكانة: البراهمة، الجند، التجار والصناع، العبيد والخدم، وهنـاك أيضـا المنبوذون، والذين يشـابهون أولاد الزنا، ولا يدخلـون في الطبقية الاجتماعية، وقد تأثر الهنود بهذه النظرية العنصرية، بسبب التقائهم بالآريين، وتمازجهـم معهم، والآريون يرون أنهم جنس يسـمو على سـائر الأجناس، وكلمة آري تعنـي «النبيل»، ومن ثم انتشـرت الفكرة في الديانة الهندوسـية، ثم تحولت لمسـلَّمة اجتماعيّة مطلقة[٣٣]. فكل فرد هو نتاج طبقته الاجتماعية التي ولد فيها، ولا أمل أمامه إذا كان وضـيعًا في أصـله بارتقاء درجات السـلم الاجتماعي، كما أن أبنـاء الطبقـة العليـا يحافظون علـى مكانتهـم، والغريب أن أبنـاء الطبقات لايتخالطون فيما بينهم، فإذا تصادف أن تجاوروا في مطعم أو مشرب أو مجلس، فإنهم يضعون حوائل بينهم.

وهو ما أكده البيروني، في تعليقه على هذا الأمر، فيقول: «وللهند في أيامنا من ذلك أوفر الحظوظ، حتى أن مخالفتنا إياهم، وتسـويتنا بين الكافّة إلا بالتقوى، أعظم الحوائل بينهم وبين الإسلام»[٣٤]، فالأمر مستقر، ببنيات اجتماعيّة طبقيّة لايمكن تجاوزها، وعلى الداعية المسلم أن يكون واعيًا لهذا، فالنسب له بعد دينيّ واجتماعيّ.

على جانب آخر، فإن الهنود لديهم أشكالات عدة من الأنكحة تشكّل فوضى في الأنساب، وقد أفاض البيروني في توضيحها، ومنها أنكحة كانت عند العرب في الجاهلية، مثل نكاح الاستبضاع، وزاد عليها الهنود بنكاح البدل، بأن يتبادل الرجلان زوجتيهما، كما شاع نكاح المقت، بأن ينكح الولد زوجة أبيه بعد وفاته، أو ينكح الأب امرأة الابن. ويعلق البيروني على ذلك بقوله: «إنما حكيت هذا، ليعرف بإزائه حس الحقّ، ويزداد ما باينه عند المقايسة قباحة»[٣٥]، وهو ما يضاد منظومة الشريعة الإسلامية التي تتحرى مواضع النُّطف، وتمنع كافة أشكال نكاح المحارم والمفاسد.

خامسها: جاء إسهاب البيروني في وصف كل ما يتصل بعلوم الهند من فَلَكٍ ولغة وآدابٍ وأشعارٍ وحكمة وكُتُب بجانب إشارات إلى التّاريخ والملوك والحكماء؛ من أجل اكتمال المعرفة لغويًّا وعلميًّا وجغرافيًّا وفلكيًّا وحسابيًّا وقانونيًّا، كما أشار تفصيلًا إلى ألعابهم خاصة لعبة الشطرنج[٣٦]، كما ذكر ألوان السحر لديهم، ومنها السحر الأسود، والسحر الذي يعيد العجوز شابًّا[٣٧] وغير ذلك.

وقد يعنّ استفهام عن عدم وجود أبواب مستقلة تحكي تاريخ الهند بشكل مباشر، بمعنى عرض حقبِهِ الزمنية، والممالك التي تتابعت على أرضه، وأخبار الحكام والملوك، في بلد شهد استقرارًا على جانبي أنهاره منذ فجر التاريخ، وهو سبب رئيس لقيام الحضارات، ولعلّ السبب الأساسي الذي يفسر هذا الاستفهام هو غاية البيروني ذاتها في تقديم رؤية معرفية تكاملية، مما يعني عدم التبحّر في التاريخ، إلا بالقدر الذي يفسر ظواهر الحاضر، فوجدنا توغلًا في التاريخ عندما يتعلق الأمر بالأنساب أو الأنكحة أو الطبقات أو حتى تطور الأديان المختلفة، فيحكي المؤلف مسبباتها وأحداثها في ضوء ما اطلع عليه، في الكتب أو فيما سمعه، أو رآه بنفسه.

وهناك سبب آخر، يتصل بمكانة التاريخ في الثقافة الهندية، فعلى الرغم من امتداد الحضارة الهندية في التاريخ لآلاف السنين، فإن المدون عن



تاريخها نزر قليل، مما دفع بعض المؤرخين المعاصرين إلى اتهام البراهمة الهنود بافتقادهم الحس التاريخي؛ فجلّ منتوج الحضارة الهندية متجليًا في كتابات روحية وفلسفية، نجدها في الملاحم الكبرى مثل « ماهاباراتا»، و « وارامايانا» ، و«بوراناس»، وفيها استشهادات من التاريخ، لشخصيات تميزت روحيًّا وأخلاقيًّا ودينيًّا، بما يعني أن المؤلفين الهنود كانوا منهمكين بالدين وليس بالتاريخ. وعندما حكمت الامبراطورية المغولية المسلمة الهند، انحصر التاريخ المدون في البلاط الامبراطوري، وحركة القادة والفتوحات. كما أن أساطير الديانة الهندية ترسخ فكرة التجسيد الإلهي، وأن الإله يتجسد في بعض البشر ليكون عونًا لهم، كما آمنوا بفكرة تناسخ الأرواح(٣٨) . مما يقلل الإيمان بدور الفرد، فلا قيمة ولا دور له، لأن الإله تجسد فيه، أو أنه يحمل روحًا لإنسان آخر.

ونرصد في كتاب البيروني الكثير من القصص المأخوذة عن كتب الأساطير الهندية، كما تكثر الإشارة إلى كتب الملاحم والأساطير الهندية في ثنايا المتن.

وعلى العموم، فإنه يمكن القول، بأن من ينتهي من قراءة هذا الكتاب، يستبين له كل شيء تقريبًا عن الثقافة الهندية، فيستطيع العيش بينهم، ومحاورتهم، وهو واعٍ تمامًا لتقاليدهم ومعتقداتهم وعلومهم، ملمًّا بالكثير من مصطلحاتهم.

بنية الخطاب وسماته:

دلّت بنية الخطاب في الكتاب على مجموعة من السمات والمكونات التي تميزه أسلوبيًّا ومضمونيًّا ومعرفيًّا؛ عن غيره من كتب الرحلات، مما يجعله مؤلَّفًا نوعيًّا. لذا، تهدف مقاربتنا إلى الوقوف على التكوين والبنية في أسلوب الكتاب، وذلك من خلال النظر في نهج البيروني في الخطاب، والصياغة، وعرض المعلومات وقصّ السرديات، وأيضا النظر في حضور التاريخ والثقافات الأخرى.

بداية، فإن أي مؤلف يضع قارئًا مفترَضًا في حسبانه وهو يصوغ كتابه فلا يمكن فهم نص الكتاب فهمًا كاملًا، إلا إذا نظرنا إلى طبيعة القارئ المستهدف، والذي سيفيدنا بلا شك في إعادة بناء للفكرة التي كوّنها المؤلف عن القارئ والموضوع ضمن محدداته التاريخية(٣٩)، مما يؤدي إلى فهم أكثر لذات المؤلف وأفكاره وغاياته وطريقته في التأليف، ولتصبح قراءة النص عملية بناء للمعنى، وليس الكشف عنه فقط(٤٠)، فأيّ نصٍّ يقرأ في سياقاته التاريخيّة، وفي ضوء الغاية التي يرومها المؤلف، ونظرته إلى مدى احتياج القارئ للمادة المقدمة له معرفيًّا وفكريًّا.

وإذا نظرنا إلى القارئ المستهدف في كتاب البيروني سنجده القارئ العربي المسلم في عصره، و أن الكثير من التنبيهات التي صاغها البيروني في متن النص تشير إلى رغبته في تعريف هذا القارئ بالمجتمع الهندي معرفة صحيحة، من أجل تأسيس علاقة ثقافية حضارية، قوامها معرفة الآخر/ الهندي بشكل صحيح، وتعريف الذات الحضارية المسلمة به، واطلاعها على علوم الهند وثقافتها، بدون استعلاء حضاري، أو اغترار معرفي، أو تحقير لأديانهم وعاداتهم ومجتمعهم.

وربما يكون هذا النهج انعكاسا لما قام به البيروني بنفسه خلال رحلاته وإقامته الطويلة في الهند، حيث كان خير سفير للعقل المسلم في القرن الرابع الهجري من خلال محاوراته مع علمائها ونخبتها، الذين رحّبوا به عالما يجيد لسانهم، ومطلعًا على علومهم، مقدّمًا إليهم ترجمات وشروحات للعلوم الحضارية الإسلامية، مع تجربة العقل المسلم فلسفيًّا، وشروح المسلمين للتراث الفلسفي اليوناني، ولا سيما أن الهنود لم يطلعوا على الفلسفة اليونانية نظرا لجهلهم باللغة اليونانية، مما أدى إلى علو منزلة البيروني بينهم عندما رأوا ترجماته للغتهم(٤١)، فقد كان الهنود يصفون اليونانيين بأنهم أنجاس(٤٢)، في جهل شديد بتراثهم الفكريّ والحضاريّ.



توجه البيروني بخطاب عقلاني هادئ، إلى القارئ العربي، فيستهلُّ كتابه، بأنه لايمكن معرفة أيّ مجتمع إلا من خلال الاتصال المباشر معه، والمقاربة لحياة شعبه، والوقوف على تقاليدهم وثقافتهم؛ بمنهجية علمية، يقول: «يجب أن نتصور أمام مقصودنا الأحوال التي لها يتعذر استشفاف أمور الهند، فإمّا أن يسهل بمعرفتها الأمر، وإما أن يتمهد لها العذر، وهو أن القطيعة تخفي ما تبديه الوصلة»[٤٣]. فمفردة (استشفاف) دالة على أن السبيل للمعرفة الصحيحة لابد أن يكون باستقراء واطلاع وموضوعية، ففي جميع الأحوال، ستعود الفائدة على من أراد الوصال/ التواصل، فمن يبغي دراسة الثقافة الهندية، يكون بين حالين، كلاهما إيجابي: إما بسهولة المعرفة إذا عزم على التعلم، أو التماس العذر له إذا لم يطلع بعد. فالجاهل بأحوالها له العذر، وعليه أن يحول قطيعته المعرفية إلى وصال، وأن يجعل الوصال سببًا في الوقوف على الحق، فإن صعب عليه الأمر له المعذرة حتى يعرف.

ثم يواصل كلامه موضحًا أوجه الاختلاف بين العرب وبين الهند بذكر جملة من الأسباب الواقعية، فيشير إلى أن: «القوم يباينوننا بجميع ما يشترك فيه الأمم، وأولها اللغة، وإن تباينت الأمم بمثلها، ومتى رامها أحد لإزالة المباينة، لم يسهل ذلك، لأنها في ذاتها طويلة عريضة»[٤٤]. فعنصر اللغة سبب رئيس في صعوبة التواصل بين المسلمين والهنود، فاللغة الهندية ذات جذور وقواعد ومخارج حروف تختلف تمامًا عن اللغة العربية، ثم يقول:»إنهم يباينوننا بالديانة مباينة كليّة، لا يقع منا شيء من الإقرار بما عندهم، ولا منهم بشيء مما عندنا، وعلى قلة تنازعهم في أمر المذاهب فيما بينهم، بما سوى الجدال والكلام، دون الإضرار بالنفس أو البدن أو الحال»[٤٥]. فهناك اختلاف عميق على مستوى الدين، والتصورات العقدية، فالمسلمون أمة دينها واحد، وإن تعددت مذاهبها، ولكن تبقى هناك ثوابت لا يمكن مناقشتها تتعلق بالعقيدة والعبادات، ويكون الاختلاف المذهبي في الفروع، بعكس واقع الديانات الهندية التي هي

في الأساس وضعية بشرية، وهي أقرب إلى الحكمة وتهذيب الروح، مع غموض مفهوم الإله. وبالتالي، لا يمكن مقاربة الثقافة الهندية من بوابة الإسلام، أي نحكم عليهم وفقًا لتصوراتنا، وليس وفقًا لواقعهم القائم، أو أن تتأثر أحكامنا عليهم بثقافتنا. ويشير البيروني إلى خاصية مهمة في حياتهم الدينية، فهم على اختلاف دياناتهم، لايتقاتلون، وإنما يتناقشون ويتحاججون، فلا صراعات دينية لديهم، مما يدل على رقيهم الحضاري، وهو ماينأى بهم عن أي صراع بدني سببه القناعات الدينية.

أما عن مظاهر تجلي التاريخ وأشكاله في الكتاب، فقد جاء بمعلومات وقصص منجّمة متفرقة، تعميقًا لفكرة أو إثراء لمعلومة في ثنايا المتن؛ في حرص من البيروني على علاج النقص -لدى القارئ العربي في عصره- عن الثقافة الهندية التي عندما حضرت في الوعي العام، بدون تعميق تاريخي سياسيًّا كان أو اجتماعيًّا، فغالبية الكتب التي تمت ترجمتها عن الهند، لم تشمل تاريخهم، وإنما اهتمت بحكمتهم وقصصهم[٤٦]، كما أن المراجع التاريخية الإسلامية، اقتصرت على فتوحات المسلمين للهند، والتي بدأت منذ النصف الثاني من القرن الأول الهجري، في عهد الخلافة الأموية، وظلت متراوحة ما بين مد وجزر.

ويمكن القول إن الصورة العامة لتمثيل التاريخ الهندي في كتابه هي عبارة عن معلومات موجزة، متناثرة، تفسر بعضًا مما يذكره عن الثقافة الهندية، أو تستشهد ببعض ما جاء عن ملوكهم وفلاسفتهم في سياق إيضاح بعض الممارسات الدينية والمفاهيم والسلوكيات، أو تبين بعض العادات والتقاليد.

والمثال الأبرز عن ذلك، ما يذكره عن أصول شريعتهم في التاريخ، فيشير إلى أنها صادرة عن «رشين» الحكماء، وأن هناك رسولًا جاءهم اسمه «نارايِن»، والذي أباح لهم أشياء كثيرة، قبل أن ينسخها «باسديو» الذي حرم عليهم البقر وغيره[٤٧].

كما يشير من خلال بعض الأمثلة إلى الأمم التي غزت الهند منذ قديم الزمان، وأن الديانة المجوسية انتشرت في الهند، وفارس، والعراق حتى وصلت إلى حدود الشام، وقد تفاخر ملك الفرس «إسفنديار»، بأن بيوت النار مشتعلة من بلاد الروم إلى الصين، ثم انحسرت لتكون في العراق وفارس، وتنجلي عن الهند. ثم يشير إلى دخول محمد بن القاسم بن المنبه الذي دخل إلى بلاد السند ثم أوغل في الهند، ووطئ أرض كندهار، ووطئ كشمير، يعارك مرة، ويسالم مرة، ولم يستقر الإسلام في الهند، بسبب سخائم متراكمة(٤٨). فمن خلال عباراته القصيرة، يوضح علاقة المسلمين بالهند، والتي بدأت مع الفتوحات المبكرة للقائد الكبير محمد بن القاسم (٧٢-٩٥هـ) الذي توغّل في أراضي الهند، واستطاع أن يضع قدمًا للمسلمين في مواطن كثيرة، وسهّل الأمر لمن جاء بعده، ولكن المشكلة أن الإسلام لم يستقر في الهند، مثلما استقر في الباكستان، شمالي الهند، حيث أقيمت ممالك إسلامية عديدة، سعت إلى مواصلة غزو الهند الذي تحقق من قبل الدولة السامانية، حتى يصل إلى منجزات الدولة الغزنوية، وذلك «أيام الترك، حين تملكوا بغزنة في أيام السامانية، ونابت الدولة ناصر الدين سبكتكين، فآثر الغزو، وتلقّب به، وطرّق لمن بعده في توهين جانب الهند طُرُقًا سلكها يمين الدولة محمود، رحمهما الله، نيّفا وثلاثين سنة، فأباد بها خضراءهم، وفعل من الأعاجيب في بلادهم ما صاروا به هباء منثورًا، وسمرًا مشهورًا، فبقيت بقاياهم المتشردة، على غاية التنافر والتباعد عن المسلمين، بل كان ذلك سبب انمحاق علومهم عن الحدود المفتتحة»(٤٩)، فهو يرى أن ما قام به الغزنويون يمثل تثبيتًا لدعائم الإسلام في الهند، وإكمالًا للبناء الذي بدأه المسلمون منذ القرن الأول الهجري، ساعين إلى نشر الإسلام ثقافة وعقيدة.

على صعيد آخر، فإن التاريخ يتحول إلى سرديات قصيرة، يستشهد بها البيروني في مواضع كثيرة، يعمّق من خلالها المعلومات التي يذكرها، وبعض



هذه السرديات أقرب إلى الأساطير والحكايات الخرافية، يوردها المؤلف دون تعليق بالصدق أو بالكذب عليها، ومن ذلك روايته لأسطورة «رام ورامايَن»، الذي حارب أخاه وقتله، وهدم سدًّا ضخمًا من خلال رشقه في عشرة مواضع، وأن هناك ما يسمى بقلعة الشياطين، تدعى«لنك»، وأن هناك جزيرة تسمى «بروامخ»، لا يقتربون منها، لأنها موطن لأعمال الشرّ[٥٠]، أورد ذلك، وهو بصدد الحديث عن جغرافية الهند بشكل مفصلٍ، رابطًا معتقدات الهنود عن أراضٍ شاسعة مهجورة، بأساطير موروثة.

فالملاحظ أن الأساطير تمتزج بالمعارف الهندية بشكل كبير، فالظواهر الطبيعية يتم تفسيرها أسطوريًّا، مما ينأى بها عن الفكر العلمي المنطقي، وهو ما يستوقف البيروني، حيث يحكي قائلًا معلومة من كتبهم: «إن حرارة الشمس وضياءها ربع حرارة النار وضيائها، وإنها في الشمال تقع في الماء بالليل ولهذا يحمرّ. وفيه أيضًا، أنه كان في القديم الأرض والماء والريح والسماء، فرأى «براهم» تحت الأرض شررة، فأخرجها وجعلها أثلاثًا، فثلث منها هي النار المعهودة المحتاجة إلى الحطب، المنطفئة بالماء، وثلث هي الشمس، وثلث هي البرق»[٥١]. فأصبحت الأسطورة عندهم سببًا في نشوء الظاهرة الفلكية، مما يعني أن التفكير العلمي الصحيح غائب في مواضع كثيرة عن العلوم الهندية، أو أنه حاضر بدرجات أدنى، وعندما يتعلق الأمر بالتفسير العلمي المادي فإنه يتلاشى، لصالح التفسير الأسطوري الديني. ومع ذلك، فإن البيروني يورد المعلومة بكل تفاصيلها، ودون تعليق منه، بالرفض أو القبول. ونرى أن هذا اتجاه محمودٌ من قبله، ودالٌّ على وعيه الكبير، بأهمية تقديم ثقافة المجتمع الهندي كما هي، دون نفي أو مناقشة لخرافاتهم أو أساطيرهم، ذلك أن الدراسات الحديثة، تثبت علمية الأسطورة، وارتباطها بالعقل البشري، لأنها تعبر عن رؤية الإنسان للوجود والحياة، وأنها أول محاولة من العقل الإنساني البدائي أو حتى



الحضـاري منه لتقديم إجابات عن عشـرات الأسـئلة عن الكون والآلهة والخلق، بجانب ارتباطها بالفلسفة، والأديان البدائية والوثنية(٥٢).

على صعيد آخر، فإن نهج المقارنة مع الثقافات والحضارات الأخرى حاضر بقوة، في دلالة على موسوعية البيروني، وهو يشير إلى ذلك، بقوله: «ونريد بعد أن نورد تصريح أقاويلهم المستخرج من جهة أرباب شرائعهم، أن ينتصب للإنصاف فـإن لاح لنا فيه شـيء أو اتفاق مع غيرهم، وإن لم يصـيبوا فيـه قررناه، لا على وجـه الذبّ عنهـم، بل قصـدًا لإذكاء الطباع لمطالعهـا»(٥٣)، إن طريقة البيروني في الاستشـهاد والإشـارة للثقافات الأخرى؛ تقارب منهج الدراسات المعاصرة في المقارنـة بين الثقافات أو الحضـارات، وبحيادية عالية، باحثًا عن أوجه التشـابه أو الاختـلاف بين ما عنـد الهند، وما لـدى الثقافات والأمم الأخـرى، فإن وجد تشـابهًا يقرّه، ويشـيد به، وكأنه يؤكد على المنزع الإنساني في الثقافة الهندية مع غيرها من الثقافات الإنسانية، وإذا وجد اختلافًا ولو كان شاذًّا، فهو يورده، دون تعليـق أو نقد له، لأنه بصـدد تقديم المعرفة المتكاملة عـن الهند، وليس في مقام النقد أو النقض، أو حتى النقاش.

ومن ذلك، إشـارته إلى أن الهنود لا يختلفون في عدد طبقات الأرض، وإنما يختلفون في الأسـماء التـي يطلقون عليهـا، ويعلل البيروني ذلك إلى سـعة اللغة الهنديـة، «فإنهم يسـمون الشـيء الواحد بأسـماء كثيرة جدًّا، والمثال الشـمس، فإنهـم سـموها بألف اسـم، كتسـمية العـرب الأسـد بقريب من ذلك، بعضـها مقتضـبة اقتضابًا، وبعضها مشـتقة من الأحوال المتغيرة فيه أو الأفعال الصادرة»(٥٤)، حضرت هنا المقارنة مع المسلمين، كما أقرّ بأن الهند تؤمن بأن الأرض سبع طبقات، وهو يطابق المفهوم الديني عند المسـلمين، مثلما يجعلون السموات سبعًا أيضًـا، وينفي البيروني في موضـع آخر بأن هذا يخالف مـا يقوله المنجمون عند المسلمين عن السموات، وأيضا ما يقوله الفرس فيما يسمونه الكشورات(٥٥)، ولعله

كان يقصد من هذه المعلومة أن المنجمين في الهند يكتفون بذكر طبقات الأرض أو السموات، بدون ربطها بعلم التنجيم على نحو ما يفعل المنجمون عند العرب أو الفرس، وإن كنّا نتحفّظ هنا على عدم وضوح المعلومة بشكل جيّد، واختلاطها ما بين الديني والتنجيم، مع ثقافات الأمم.

ومن استشهادات الثقافة اليونانية، ما يورده بقوله: «ومن أساطير اليونانيين، أن أيفسطس عشق أثينا، وراودها فدفعته حفظًا للعذريّة، واختفى لها في بلاد أثينية، وأراد القبض عليها، فدفعته بحربة، حتى تركها، وأرسل النطفة على الأرض فكان منها أرْقتنيوس، وإنه جاء على عجلة مثل رخ الشمس، ومعه ممسك الأعنّة راكب، وما في الميدان من في زماننا من رسوم الركض والجري في الفخاخ فهو تشبيه به» (٥٦).

جاء الاستشهاد تعليقًا على وصف البيروني للعبة الشطرنج، وتطرقه إلى أشكال رآها مرسومة، تعبر عن طائر الرخّ الضخم، فأورد الأسطورة اليونانية، ليدلل بها على أن طائر الرخ المزعوم إنما هو ذو طبيعة أسطوريّة، ويربط هنا ما بين تصور الهنود عنه، وما يعرفه عن الأساطير اليونانيّة، تعميقًا للمعلومة. لقد كان النهج في الصياغة الأسلوبية واضحًا، بأنه إذا تطلّب السياق تبيانًا أو تعميقًا، فإن المؤلف يضرب الأمثلة من الثقافة الهندية أولًا، إمّا بحكاية أو مثَل أو معلومة أو أسطورة، فإن لم يتيسر له، فإنه يستشهد بالثقافة الإسلامية العربية، أو بالثقافة اليونانية أو الفارسية، وقد يورد ما يعرفه من هذه الثقافات في متوالية سردية.

من الملاحظ أيضًا استخدام البيروني الأسلوبَ العلميَّ، بتمكن لغويٍّ عالٍ، وبجملٍ قصيرة غالبًا، مع إشباع ذائقة القارئ في بعض المواضع بالمحسنات البديعية، جريًا على عادة الكتّاب في عصره، ودفعا للسأم؛ نتيجة جفاف الكتابة

العلميـة، ولنقرأ مثالًا لذلـك: «إن الهند في أمر الترتيب متسـاهلون، وعن نظام تواريـخ الملـوك في التـوالي متغافلـون، وإلـى التجـازف عند الحيرة والضـرورة ملتجئون»[٥٧]. فالسـجْع هنا سـمة بلاغيّة، على الرغم من أن المعنى المقصود هو نقد مباشر لإهمال الهنود لعلم التاريخ، والذي هو ذاكرة أي أُمّة، مما يوقعهم في كثير من الحيرة.

أمر آخر يتصـل بالمصـطلحات والمفـردات الهندية، فقـد دوّنها البيروني بنفس نطقها الهنديّ، ثم قام بشـرح معناها أو المقصـود منها، ومن الأمثلة على ذلك ما يورده البيروني في شـرح أجزاء اليوم، يقول: «سـند الأصلي هو الذي بين النهار والليل، وهو الفجر بالغدوات، ويسمونه «سنَد أدّوّ»، أي الذي من الطلوع من الشفق وهو العشيات، ويسمونه «سنَد قستِمن»، أي الذي من الغروب»[٥٨].

فيسـتطيع قـارئ الكتاب أن يكتسـب الكثير من المصـطلحات الهندية، التي تعينه على فهم الثقافة والمجتمع الهندي. كما تم اسـتخدام الجداول والرسومات والأشـكال والخرائـط على امتداد الكتاب لتقديم الشـرح في الجغرافيا أو الفلك أو اللغة وغير ذلك.

جديـر بالذكـر، أن البيروني لم يسـجل في كتابه أيّة مواقف شخصـية مرّ بها، أو شـاهدها بعينيه، أو تجارب تعرض لها، على نحو ما يفعل الرحالة عادةً، حينما يذكرون كلمات من مثل: رأيت بأم عيني، شـاهدتُ، عاينتُ، صـادفتُ، مرّ بي، وغير ذلك، وبعضـهم يبالغ في إظهار شجاعته، ومهاراته الفائقة التي جعلته ينجو من مواقف صعبة، بجانب مغامراته وبطولاته[٥٩]،فالبيروني على الرغم من رحلاته الكثيرة إلى الهند، وقضـائه أيامًا طويلة مع أهلها، فإنه تجنب أي إشارة إلى تجارب شخصية أو الإشادة بذاته، لأنه في البدء والمنتهى، عالم جليل، يبتعد قدر استطاعته عن الذاتيّة، في حرص على تقديم معلومة قيمة للقارئ، لأنه ليس

بصدد إنجاز كتاب رحلات للتسلية، وإنما عمل سفر ضخم، يخدم به الثقافة العربية الإسلامية، من خلال التعريف بالهند ثقافة وشعبا ومعارف وأديانًا.

وأخيرا، فإن كتاب البيروني عن الهند عمل موسوعي، ينبغي قراءته ودراسته بشكل معمق، وبمنهجيات مختلفة، تكشف من ورائها أبعاد المجتمع الهندي، وكيف استطاع مؤلفه تقديمه الثقافة الهندية، كما يكشف موسوعية البيروني، وقدرته على كتابة نموذج فريد في أدب الرحلات.

الخاتمة:

يمكن أن نصل في ختام هذه الدراسة إلى جملة نتائج:

- إن أدب الرحلات ذا الطبيعة العلمية في حاجة ماسّة إلى تسليط الضوء عليه، لتبيان خصائصه، ودراسة بنيات خطابه، وعدم الاكتفاء بنصوص الرحلات الشهيرة، والتي تخالف في أسلوبها الرحلة العلمية، وتقدم صورة بصرية ذاتيّة أكثر منها علميّة.

- هناك خلط لدى الباحثين في تصنيف كتب الرحلات العلمية، فكثيرون يضعونها ضمن الكتب العلمية، وليست من أدب الرحلات، ولفكّ هذا الإشكال، يمكن أن نقرر أن الكتاب العلمي المدون من قبل رحّالة إلى بلد ما، يُعَدُّ من أدب الرحلات، فحرص مؤلفه على إسباغ الطابع العلمي عليه، أمر يحسب له، على شريطة أن تكون كتابته من واقع اطلاع مرجعيّ على ثقافة البلد التي رحل إليها، ومن خلال تعايشه مع أهلها، ووقوفه على عاداتهم وتقاليدهم.

- شكّل البيروني نهجًا ونموذجًا في كتابة الرحلة العلمية، واستثمر ثقافته الموسوعية في إنتاج كتاب متميز فكرًا وأسلوبًا ومعلوماتٍ وغايةً، وهنا ندرك أن مدونات الرحلات تتوقف على مدى ثقافة الرحالة وامتلاكه معرفة عميقة وعلومًا



عديدة، وأن كتب الرحلات الشـهيرة ألّفها علماء أفذاذ، على تفاوت في قدراتهم وعطائهم.

-جاء منهج البيروني في كتابه ليقدم صـورة عن المجتمع الهندي كما يتبدى في فكر العلماء المسلمين الثقاة، الحريصين على الحق والحقيقة، وليست الطرافة والتسلية.

-يعـد كتـاب البـيروني عن الهنـد وثيقة معرفيـة تقدم لنا ملامـح المجتمع الهندي وثقافته إبان القرن الرابع الهجري، ويكمل جهود علماء آخرين كتبوا عن الهند إمّا سـابقًا عليه أو لاحقًا له، ومن هنا يتعيّن علينا أن نقرأ تاريخ الهند كما تبدى في كتابات الرحالة والمؤرخين والعلماء المسلمين، للوقوف على أبعاد الصورة في أزمنة مختلفة.

-إن مدونـات أدب الرحـلات هي نصـوص يتقاطـع فيها الثقـافي والديني، والأسـطوري والمتخيـل، والممارسـة والسـلوك، والتاريخي والجغرافي، والشـعبي والنخبوي، ويتحتم علينا قراءة هذه النصـوص وفـق منهجيات عديدة، من أجل المزيد من تسـليط الضوء على ما حوته من أبعاد معرفية، ومقارنتها مع نصوص أخرى معاصـرة للتفسـير والإبانة، أملًا في أن تكون النصــوص الرحلية رافدًا في الدراسات الثقافية والتاريخية.

المصادر والمراجع

أولا : المصادر:

كتـاب البيروني في تحقيـق ما للهند من مقولة مقبولـة في العقل أو مرذولة، مطبعة دائرة المعارف العثمانية، حيدر أباد الدكن، الهند، ١٣٧٧هـ، ١٩٥٨م



ثانيا: المراجع:

أ) الكتب:

-أبو الريحان البيروني: حياته، مؤلفاته، أبحاثه العلمية، علي أحمد الشحات، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٨م.

-أديان الهند الكبرى: الهندوسية، البوذية، الجينية، د. أحمد شلبي، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط١١، ٢٠٠٠م.

-الأسطورة والرواية، ميشيل زيرافا، ترجمة: صبحي حديدي، دار الحوار، اللاذقية، ط١، ١٩٨٥م.

-الأصول المعرفية لنظرية التلقي، ناظم عودة خضر، دار الشروق للنشر والتوزيع، رام الله- عمان، ط١، ١٩٩٧م.

-الاستشراق: المفاهيم الغربية للشرق، إدوارد سعيد، ترجمة: محمد عناني، دار رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠٠٦م.

-البيروني: أبو الريحان محمد بن أحمد، د. أحمد سعيد الدمرداش، سلسلة أعلام الأعلام، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٠م.

-تاريخ العلم والإنسية الجديدة، جورج سارتون، ترجمة: إسماعيل مظهر، مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر، القاهرة- نيويورك، ١٩٦١م.

-ثريا النص: مدخل لدراسة العنوان القصصي، محمود عبد الوهاب، سلسلة الموسوعة الصغيرة، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ط١، ١٩٩٥م.

-الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، آدم متز، ترجمة: محمد عبد الهادي أبو ريدة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٨م.



-علـم التاريخ عند المسـلمين، فرانز روزنتال، ترجمة: صـالح أحمد العلي، مكتبة المثنى، بغداد، ١٩٦٣م.

-المذاهـب الكـبرى في التاريـخ: مـن كونفوشـيوس إلـى توينبـي، البان ج. ديدجيري، ترجمة: ذوقان قرقوط، دار القلم، بيروت، ط١، ١٩٧٢م.

-المعارك الإسـلامية في الهند، د. أحمد محمد الجوارنة، جامعة اليرموك، الأردن، د.ت.

- المعجـم الوسـيط، مجمع اللغـة العربية بالقاهرة، نشـر: مكتبة الشـروق الدولية، القاهرة، ط٤، ٢٠٠٤م.

-همـع الهوامـع في شـرح جمع الجوامع، عبـد الرحمن بن أبـي بكر، جلال الدين السيوطي، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، المكتبة التوفيقية، مصر، د ت

- الرحلة في الأدب العربي حتى نهاية القرن الرابع االهجري، د. ناصر عبد الرزاق الموافي، دار النشر للجامعات المصرية، القاهرة، ط١، ١٤١٥هـ، ١٩٩٥م.

-العلوم عند المسـلمين، هـوارد ر. تيرنر، ترجمة: فتح الله الشـيخ، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ٢٠٠٤م.

ب) المجلات والدوريات:

السيميوطيقا والعنونة: د. جميل حمداوي، مجلة عالم الفكر، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، العدد (٣)، المجلد (٢٥)، ١٩٩٧م.

الهوامش

(١) ولد في ضاحية من ضواحي خوارزم (من جمهوريات آسيا الوسطى وتسمى الآن أوزبكستان)، وقام برحلات لطلب العلم إلى بلدان مختلفة حوله، وقد أتقن عددًا من اللغات غير العربية، مثل الفارسية والسنسكريتية والسريانية واليونانية. في الخامسة و العشرين، رحل البيروني إلى جرجان آملا الالتحاق ببلاط السلطان أبو الحسن قابوس وشمجير شمس المعالي، وبالفعل نال حظوة هناك، ونشر أول كتبه وهو" الآثار الباقية، عن القرون الخالية". ثم رجع إلى موطنه بعدما ذاعت شهرته، متصلا بحاشية الأمير أبي العباس مأمون بن مأمون خوارزمشاه، الذي عهد إليه ببعض المهام السياسية نظرا لطلاقة لسانه، وعندما استولى على الإمارة الأمير محمود بن سبكتكين حاكم غزنة عام ٤٠٧ هـ، ألحق البيروني بطائفة من العلماء في بلاطه، ولينشر ثاني مؤلفاته الكبرى، وهو: «تحقيق ما للهند من مقولة، مقبولةٍ في العقل أو مرذولة» كما كتب مؤلفينِ آخرين ضخمين، وهما «القانون المسعودي»، «التفهيم لأوائل صناعة التنجيم»، وأطلق عليه المستشرقون تسمية بطليموس العرب، فكتبه في النجوم والفلك والمنطق والحكمة، تفوق الحصر، وقيل إن فهرس تجميعها، كان يفوق ستين الورقة.

انظر تفصيلا: أبو الريحان البيروني: حياته، مؤلفاته، أبحاثه العلمية، علي أحمد الشحات، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٨م، ص٧٠ – ٧٤.

(٢) البيروني: أبو الريحان محمد بن أحمد، د. أحمد سعيد الدمرداش، سلسلة أعلام الأعلام، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٠م، ص١٠، ١١

(٣) المعارك الإسلامية في الهند، د. أحمد محمد الجوارنة، جامعة اليرموك، الأردن، د.ت، ص٢٧، ٢٨.

(٤) البيروني: أبو الريحان محمد بن أحمد، د. أحمد سعيد الدمرداش، ص٢٠.

(٥) الرحلة في الأدب العربي حتى نهاية القرن الرابع االهجري، د. ناصر عبد الرزاق الموافي، دار النشر للجامعات المصرية، القاهرة، ط١، ١٤١٥هـ، ١٩٩٥م، ص٩، ١٠. من مثل موقف الرحالة ابن حوقل من الحمدانيين، والأندلسيين والفاطميين، وموقف المقدسي من السامانيين، ويخالفهم موقف ابن فضلان الذي كان دوما في صالح أمنه وقضاياها.

(٦) الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، آدم متز، ترجمة: محمد عبد الهادي أبو ريدة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٨م، ص٩-١١.

(٧) العلوم عند المسلمين، هوارد ر. تيرنر، ترجمة: فتح الله الشيخ، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ٢٠٠٤م، ص٣٦.



(٨) السابق، ص٤٦ .

(٩) الثقافة الإسلامية في الهند: معارف العوارف في أنواع العلوم والمعارف، عبد الحي الحسني، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، ٢٠١٥م، ص١٣ ، ١٤ .

(١٠) انظر للمزيد: الأثر الحضاري للغزو المغولي للمشرق الإسلامي(٦١٧-٨٠٣هـ) ، د. محمد فايد حسن الوجيه، مجلة جامعة الناصر، العدد(٦)/ مجلد (٢) ، يوليو -ديمسبر٢٠١٥م، ص٤٧٢-٤٧٧ .

(١١) البيروني: أبو الريحان محمد بن أحمد، د. أحمد سعيد الدمرداش، ص٤٣.

(١٢) المرجع السابق، ص٤١، ٤٢.

(١٣) الرحلة في الأدب العربي حتى نهاية القرن الرابع االهجري، د. ناصر عبد الرزاق الموافي، ص٥٠،٤٩.

(١٤) تاريخ العلم والإنسية الجديدة، جورج سارتون، ترجمة: إسماعيل مظهر، مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر، القاهرة- نيويورك، ١٩٦١م، ص٥٥.

(١٥) المرجع السابق، ص٦٠ .

(١٦) أبو الريحان البيروني: حياته، مؤلفاته، أبحاثه العلمية، ص٧٢، ٧٣.

(١٧) المرجع السابق، ص٨٤ ، ٨٥

(١٨) ثريا النص: مدخل لدراسة العنوان القصصي، محمود عبد الوهاب، سلسلة الموسوعة الصغيرة، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ط١، ١٩٩٥م، ص١٠.

(١٩) السيميوطيقا والعنونة: د. جميل حمداوي، مجلة عالم الفكر، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، العدد (٣) ، المجلد (٢٥) ، ١٩٩٧م، ص١٠٢.

(٢٠) كتاب البيروني في تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة، مطبعة دائرة المعارف العثمانية، حيدر أباد الدكن، الهند، ١٣٧٧هـ، ١٩٥٨م، ص١ (بعد تفصيلات الفهرس الطويل والذي وقع في ٧٠ صفحة)

(٢١) المصدر السابق، ص٢ .

(٢٢) المصدر السابق، ص٥.

(٢٣) الاستشراق: المفاهيم الغربية للشرق، إدوارد سعيد، ترجمة: محمد عناني، دار رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠٠٦م، ص٥٥.

(٢٤) السابق، ص٥٣.

(٢٥) تحقيق ما للهند .. ، ص٤.



(٢٦) المصدر السابق، ص٥ ، ٦.

(٢٧) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية بالقاهرة، نشر: مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، ط٤، ٢٠٠٤م، ص١٩٠.

(٢٨) همع الهوامع في شرح جمع الجوامع، عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، المكتبة التوفيقية، مصر، د ت، ج٣، ص٢٦٣.

(٢٩) الرحلة في الأدب العربي، ص٦٦ .

(٣٠) اعتمدنا على الفهرس المذكور في مطلع الكتاب، والممتد من الصفحات (٢– ٦٨)، وقد أورده قبل خطبة المؤلف.

(٣١) أديان الهند الكبرى: الهندوسية، البوذية، الجينية، د. أحمد شلبي، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط١١، ٢٠٠٠م، ص٢٠٠، ٢٠١.

(٣٢) تحقيق ما للهند ...، ص٧٥، ٧٦.

(٣٣) أديان الهند الكبرى، ص٥٢.

(٣٤) تحقيق ما للهند ... ، ص٧٦.

(٣٥) السابق، ص٨٤.

(٣٦) السابق، ص١٤٧، ١٤٨ .

(٣٧) السابق ، ص١٥٠– ١٥٢ .

(٣٨) المذاهب الكبرى في التاريخ: من كونفوشيوس إلى توينبي، البان ج. ديدجيري، ترجمة: ذوقان قرقوط، دار القلم، بيروت، ط١، ١٩٧٢م، ص٤٧– ٤٩.

(٣٩) الأصول المعرفية لنظرية التلقي، ناظم عودة خضر، دار الشروق للنشر والتوزيع، رام الله– عمان، ط١، ١٩٩٧م، ص١٦٣.

(٤٠) السابق، ص١٢٣ .

(٤١) أبو الريحان البيروني: حياته، مؤلفاته، أبحاثه العلمية، س٧١، ٧٢.

(٤٢) تحقيق ما للهند ...، ص١٧.

(٤٣) ص١٣.

(٤٤) السابق، ص١٣.

(٤٥) السابق، ص١٤.

(٤٦) علم التاريخ عند المسلمين، فرانز روزنتال، ترجمة: صالح أحمد العلي، مكتبة المثنى، بغداد، ١٩٦٣م، ص١٣١.



(٤٧) تحقيق ما للهند .. ، ص٨١، ٨٢.

(٤٨) السابق، ص١٥، ١٦ .

(٤٩) السابق، ص١٦.

(٥٠) السابق، ص٢٦١ ، ٢٦٢.

(٥١) السابق، ص٣٩٤ .

(٥٢) الأسطورة والرواية، ميشيل زيرافا، ترجمة: صبحي حديدي، دار الحوار، اللاذقية، ط١، ١٩٨٥م، ص٥.

(٥٣) تحقيق ما للهند ..، ص١٨٥.

(٥٤) تحقيق ما للهند ..، ص١٨٥، ١٨٦ .

(٥٥) السابق، ص١٨٥.

(٥٦) السابق، ص٣٤٠، ٣٤١ .

(٥٧) السابق، ص٣٤٩ .

(٥٨) السابق، ص٣٠٦ .

(٥٩) الرحلة في الأدب العربي، ص١٥٨، ١٥٩ .